منطق التربية الطبيعية عند Jean-Jacques Rousseau
وتأثيره على نظريات التعليم الحديثة

الأستاذة الباحثة: فاطمة سباع
محاضرة بكلية الإلهيات
جامعة الفرات التركية
المغرب

الملخص

تتناول هذه الدراسة منطق التربية الطبيعية عند جان جاك روسو وتأثيره على نظريات التعليم الحديثة، مع التركيز على كيفية تطبيق أفكاره في التربية المعاصرة. وتكمن أهميتها في إبراز تأثير أفكار روسو في تطور أساليب التعليم الحديثة، وخاصة تلك التي تركز على احترام الطبيعة الفطرية للطفل وتعزيز التعلم من خلال التجربة. كما تهدف إلى تحليل المبادئ الأساسية للتربية الطبيعية عنده واستكشاف تأثيرها على النظريات المعاصرة. أما إشكاليتها فتتمثل، في مدى تأثير منطق التربية الطبيعية عند روسو على النظريات التربوية الحديثة وكيفية تطبيقها في التعليم المعاصر؟ وقد اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي والنقدي ومقارنة أفكار روسو مع النظريات التربوية الحديثة مثل تلك التي طورها جون ديوي وماريا مونتيسوري. وقد ركزت الدراسة على التحليل التربوي فقط، مع تجنب التطرق إلى الجوانب الاجتماعية والسياسية التي أثرت في أفكار روسو. وتم تناول البحث من خلال مبحثين، الأول: المبادئ الأساسية للتربية الطبيعية عند جان جاك روسو. الثاني: أثرها على نظريات التعليم الحديثة. وفي الختام أظهرت الدراسة أن أفكار روسو لا تزال تؤثر بشكل كبير في التعليم المعاصر، وأوصت بتطوير أساليب التعليم التي تركز على الطفل، وتعزيز التعلم التفاعلي والشامل، وتفعيل الأنشطة التي تدعم الاستقلالية والنمو الذاتي للطفل.

الكلمات المفتاحية: التربية الطبيعية، جان جاك روسو، نظرية التعليم الحديثة، جون ديوي، ماريا مونتيسوري

المقدمة

ولد جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau ، في جنيف، 28 يونيو 1712 وتُوفي في 2 يوليو 1778 (عن عمر ناهز 66 عاماً)، هو كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات جنيفي، يعد من أهم كتاب عصر التنوير، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية .حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.[1] كان جان جاك روسو واحدًا من أكثر الفلاسفة تأثيرًا في تاريخ الفكر التربوي، ولا سيما من خلال كتابه الشهير "إميل أو التربية» Emile, or On Education ، الذي وضع فيه نظرياته عن التربية الطبيعية. وهذه الفلسفة التربوية تركز على احترام الطبيعة الفطرية للطفل وتركه يتعلم من خلال التجربة والخبرة المباشرة بدلاً من التلقين الجاف، ولقد أحدث هذا التوجه تغييرات جذرية في كيفية النظر إلى عملية التعليم ودور المعلم، وأدى إلى ظهور العديد من النظريات التربوية الحديثة التي تبنت هذه المبادئ بشكل أو بآخر.

تكمن أهمية هذا البحث في دراسة تأثير منطق التربية الطبيعية عند روسو على نظريات التعليم الحديثة، حيث إن العديد من الأساليب التعليمية المعاصرة تستند إلى مبادئه الأساسية، مثل التعليم الذاتي، التعلم التفاعلي، واحترام النمو الطبيعي للأطفال .ويتضح من خلال ذلك كيف أن أفكار روسو لا تزال تشكل حجر الزاوية في مناهج التعليم الحديثة وتوجهات العديد من الأنظمة التربوية حول العالم.

الهدف من هذه الدراسة، هو تحليل منطق التربية الطبيعية عند جان جاك روسو، واستكشاف تأثيره العميق على النظريات التربوية الحديثة مثل التعليم التقدمي، الأسلوب التفاعلي، والتعليم الذاتي .ومن خلال هذه الدراسة، سيتم تسليط الضوء على كيفية تطبيق مفاهيم روسو في العصر الحديث وتوجيهات ذلك على التجربة التعليمية.

تطرح هذه الدراسة إشكالية كبرى تتمثل في مدى إمكانية القول بأن منطق التربية الطبيعية عند جان جاك روسو قد شكل الأساس للنظريات التربوية الحديثة، وكيفية تطبيق هذه المبادئ في التعليم المعاصر، ومدى توافق الأفكار التربوية لروسو مع التحديات التربوية المعاصرة؟ وهذه الإشكالية تجرنا لطرح عدة أسئلة منه: ما المبادئ الأساسية للتربية الطبيعية عند جان جاك روسو؟ وما أثرها على نظريات التعليم الحديثة؟

وفيما يتعلق بحدود هذا البحث، فإنها تتحدد في التركيز على تحليل منطق التربية الطبيعية عند روسو وتأثيره المباشر على النظريات التربوية الحديثة، مع النظر في أبرز مفاهيم روسو وتطبيقاتها في بعض الأساليب التعليمية المعاصرة. كما يقتصر البحث على الجانب التربوي، متجنبًا التطرق إلى السياقات الاجتماعية والسياسية التي تأثر بها روسو. ولمعالجة الإشكالية التي يطرحها هذا البحث، سيتم الاعتماد على المنهج التحليلي من خلال دراسة النصوص التربوية لروسو، بالإضافة إلى مقارنة هذه النصوص مع النظريات التربوية الحديثة التي تأثرت بها. كما سيعتمد البحث على التحليل النقدي

للنظريات التعليمية الحديثة مثل تلك التي تبناها جون ديوي وماريا مونتيسوري، لمقارنة مدى تشابهها مع أفكار روسو في التعليم.

للإجابة عن الأسئلة التي تطرحها إشكالية هذه الدراسة ولتحقيق الأهداف المنشودة، سيقسم البحث إلى مبحثين، تتقدمهما مقدمة تشمل على أهمية البحث، أهدفه إشكاليته، منهجه، حدوده، وخطته. وتليهما خاتمة تشمل أهم النتائج والتوصيات وتفصيل خطته كالآتي:

المبحث الأول: المبادئ الأساسية للتربية الطبيعية عند جان جاك روسو

المبحث الثاني: أثر التربية الطبيعية عند جان جاك روسو على نظريات التعليم الحديثة

1. المبادئ الأساسية للتربية الطبيعية عند جان جاك روسو

أرسى جان جاك روسو، من خلال فلسفته التربوية، أرسى مبادئ التربية الطبيعية التي تهدف إلى احترام النمو الفطري للطفل، كما يعتبر أن التعليم يجب أن يتماشى مع مراحل نمو الطفل، حيث يبدأ بالتجارب الحسية البسيطة ثم يتطور مع تطور قدراته. ولمعرفة المزيد عن هذه المبادئ سيتم تناول هذا المبحث من خلال مطلبين، الأول: المبادئ المتعلقة بتطور الطفل ونموه الطبيعي (1.1)، والثاني: المبادئ المتعلقة بأسلوب التعليم والتفاعل بين المعلم والطفل(2.1)

1.1 المبادئ المتعلقة بتطور الطفل ونموه الطبيعي

استهل جان جاك روسو كتابه(إميل أو التربية) بقوله: «كل شيء يصنعه خالق البرايا حسن، وكل شيء يفسد بين يدي الإنسان[...] وهو يخرب كل شيء ويشوهه، وهو يحب القبح والمسوخ، وهو لا يريد شيئا كما صنعته الطبيعة، حتى الإنسان، فيجب ترويضه لنفسه كالفرس الركوب، ويجب أن يكيف على نهجه كشجرة في حديقته."[2] يشير جان جاك روسو من خلال هذه العبارات، إلى مجموعة من المبادئ التربوية التي تتعلق بنقده للتدخلات البشرية في الطبيعة والحياة البشرية، بحيث يعبر عن إيمانه بأن كل شيء في الطبيعة خلقه الله جيدًا وجميلًا، ولكن الإنسان هو من يفسد هذه الطبيعة . وفي التربية، يُشدد على ضرورة احترام الطبيعة الفطرية للإنسان وعدم فرض تدخلات خارجة عن إرادته أو غير ملائمة لمرحلته العمرية، مما يتوافق مع فكرته التربوية التي تدعو إلى تربية الطفل وفقًا لطبيعته. كما يرى بأن التدخلات الاجتماعية والتربية القسرية تُفسد وتُشوه الإنسان والطبيعة. وهذا يرتبط بفكرة أن التعليم يجب أن يكون غير قسري، وأن المجتمع أو النظام التعليمي لا يجب أن يفرض على الأطفال قيمًا أو معارف لا تتناسب مع طبيعتهم أو تطورهم الشخصي. إضافة إلى ذلك فإن هذه العبارات تظهر مبدأ التربية على أساس التكيف مع الطبيعة البشرية؛ إذ يشير إلى أن التربية يجب أن تساعد الطفل على التكيف مع ذاته ومع العالم من حوله، دون فرض قيود أو إشراف قاسي. فالتربية التي يدعو لها روسو هي تلك التي تسير مع نمو الطفل وتطوره الطبيعي، وتتيح له النمو بحرية، أما قوله "يجب أن يكيف على نهجه كشجرة في حديقته" يشير إلى فكرة التعليم بالتفاعل مع البيئة، أي أن الطفل يجب أن يتعلم من خلال تجربته المباشرة مع العالم من حوله، كما تنمو الشجرة في حديقتها وفقًا لظروفها الطبيعية. وهذه الفكرة تتماشى مع التربية الطبيعية التي يراها روسو، حيث لا ينبغي فرض معارف أو أساليب تعليمية على الطفل، بل يجب أن يُترك ليكتشف ويتعلم بناءً على تجربته الخاصة، كما يؤكد على

أن الطفل يجب أن يُسـمح له بالتطور بحرية، دون التدخل المفرط من أحد، حيث يعتقد أن الطفل يجب أن يكون حرًا في تحديد مسار تعلمه وتطوره، تمامًا كما تنمو الشجرة في الحديقة بحرية وفقًا لطبيعتها.

وعليه نسـتنتج أن روسـو كان ينادي بتربية تحترم الطبيعة الفطرية للإنسـان وتسـمح له بالنمو والتطور بحرية دون تدخلات قسرية، كما يعتقد أن الإنسان يولد بطبيعته الفطرية السليمة، ولكن التدخلات البشرية والمجتمعية هي التي تُفسد هذه الطبيعة. ولذلك، شدد على ضرورة أن يتماشى التعليم مع نمو الطفل الطبيعي، وأن يتم تربيته من خلال تجربته المباشرة مع البيئة، كما أن التربية وفقًا لروسو يجب أن تتيح للطفل حرية التكيف مع نفسه ومع العالم من حوله، مع مراعاة مراحله العمرية. وبذلك، يظهر روسو رؤية تربوية تسعى إلى تعزيز الحرية الشخصية والابتعاد عن التوجيه القسري، مشجعًا على تربية تتيح للطفل اكتشاف نفسه وتعلمه بناءً على تجاربه الخاصة.

وفي قوله:» وتقوم جميع حكمتنا على مُبْتَسرات دانية، وليست جميع عاداتنا غير تسخير وعسر وقسر، ويولد الرجل المدني ويحيا ويموت في العبودية، وذلك أنه يخاط في قماط عندما يولد، وأنه يسـمر في تابوت إذا مات، وأنه يقيد بنظمنا ما حافظ على وجه بشـري. ويقال إن كثيرا من القوابل يزعمن أنهن بدلكهن رؤوس الأطفال المولودين حديثا يمنحنها شـكلا أكثر ملاءمة فيسمح بذلك، ولذا تكون رؤوسنا سيئة التصوير على الوجه الذي يكونها به صانع وجودنا، فيجب تكييفها من قبل القوابل خارجا ومن قبل الفلاسفة داخلا؛ ولذا يكون الكرايب أسعد حالا منها."[3] يُشير جان جاك في هذا النص، إلى أن الإنسان الذي يعيش في المجتمع المدني يُولد ويعيش في "العبودية"، وهو في هذا السياق يشير إلى القيود التي يفرضها المجتمع على الفرد؛ أي أن الإنسـان يُحتجز في إطار معين من التقاليد والعادات الاجتماعية التي تحد من حريته الطبيعية، ويقال إن الإنسان في المجتمع لا يعيش بحرية تامة بل يخضع للعديد من القيود والضغوط.كما يشير إلى كيفية تأثير المجتمع على الإنسان منذ ولادته وحتى وفاته؛ إذ يُولد الإنسان في "قماط" وفي ذلك إشارة ربما إلى القيود التي تفرضها التقاليد على الطفل منذ البداية، ويُسمر في تابوت بمعنى الموت أو نهاية الحياة في إطار المجتمع الذي يفرض نمطًا معينًا من الحياة والموت. وكيف لهذه التقاليد وبعض الممارسات مثل "تقييد رأس الطفل" أو "تصويره" من قبل القوابل والفلاسفة تؤثر على طريقة نموه، كما يمكن أن يُفهم من هذا أن الإنسان يتم تشكيله وفقًا لتقاليد وأعراف معينة، التي قد تكون غير طبيعية بالنسبة له في الأصل؛ أي أن جان جاك روسو يعتقد أن الكثير من سمات الإنسان أو شكله يمكن أن تكون نتيجة لظروف اجتماعية وثقافية، وليس فقط طبيعة فطرية، مما يعني أن هناك قوة هائلة للمجتمع في تشكيل الإنسان.

انطلاقا مما تم ذكره، فيمكن أن نسـتنتج أنه يعكس فكرًا نقديًا نحو الحياة المدنية والتأثيرات الاجتماعية على الفرد. ويؤكد على أن التقاليد والعادات تقيّد الفرد منذ ولادته وحتى وفاته، وتعمل على تكوينه بشكل لا يتناسب دائمًا مع حريته الفطرية والطبيعية.

ثم قال: «لم يكد الولد يخرج من بطن أمه، ولم يكد يتمتع بحرية الحركة ويمد أعضاءه، حتى يعطى قيودا جديدة[...] ألا يؤثر القسر البالغ هذه الدرجة من القسوة على مزاجهم، كما يؤثر في بنيتهم؟ يقوم إحساسهم الأول على شعورهم بالألم

والغم."[4] في هذا القول، يعبر جان جاك روسو عن نقده القوي للتدخلات القسرية التي يمارسها المجتمع أو النظام التربوي على الطفل منذ لحظات ولادته. ويشير إلى أن الطفل، الذي يولد طبيعيًا وحراً، يعاني من قيود تفرض عليه بمجرد خروجه من رحم أمه. وهذه القيود تشمل، الأنظمة الصارمة التي تُفرض على الطفل في مرحلة مبكرة من حياته، مثل التربية القسرية، التي تسلبه حرية الحركة والاكتشاف، وتجبره على اتباع نمط حياة معين، بدلاً من أن يُترك لينمو بحرية وفقًا لاحتياجاته الفطرية، ويرى أن هذه القيود، تؤثر سلبًا على مزاجه وتكوين شخصيته. فالطفل، الذي كان من المفترض أن يبدأ حياته بتجربة حرية الحركة والراحة، يبدأ شعوره الأولي بالوجود على الأرض بالإحساس بالألم والغم، والتي تؤدي إلى نشوء مشاعر سلبية في الطفل منذ بداية حياته، مثل الخوف والإحباط، بدلاً من توفير بيئة طبيعية وداعمة لنموه العقلي والعاطفي.

وعليه نستنتج أن روسو ينتقد التربية القسرية التي تركز على تقييد حرية الطفل بدلاً من مساعدته على اكتشاف ذاته وتنمية قدراته بحرية، ويعتبر أن هذه الممارسات تؤدي إلى تأثيرات سلبية طويلة المدى على نفسية الطفل وسلوكه.

وذكر روسو مجموعة من المبادئ التربوية المتعلقة بتربية الأطفال بقول:" ويبعد الأولاد من أن يكونوا ذوي قوة بالغة، حتى إنه ليس عندهم من القوة ما يكفي لما تطالبهم به الطبيعة ولذا يجب أن يترك لهم استعمال جميع القوى التي تنعم الطبيعة بها عليهم، فلا يمكنهم لأن يسيئوا استعمالها، وهذا هو المبدأ الأول. ويجب أن يُساعدوا، وأن يتدارك ما يعوزهم من المعرفة أو القوة في كل احتياج بدني، وهذا هو المبدأ الثاني. ويجب أن يقتصر في العون الذي يمدون به على النافع الحقيقي، من غير أن يلبي داعي الهوى أو الرغبة بلا سبب؛ وذلك لأن الهوى لا يزعجهم مطلقا إذا لم يحدث؛ فالهوى ليس من الطبيعة، وهذا هو المبدأ الثالث. ويجب أن تدرس لغتهم وإشارتهم بعناية، وذلك لكي يفرق في رغباتهم في سن لا يعرفون أن يخادعوا فيها، بين ما يصدر عن الطبيعة مباشرة وما يصدر عن الرأي، وهذا هو المبدأ الرابع."[5]

يؤكد روسو هنا على أهمية السماح للأطفال باستخدام قدراتهم الطبيعية بحرية دون قيود مفرطة. والأطفال يجب أن يُسمح لهم بتطوير قوتهم الجسدية والعقلية وفقًا لاحتياجاتهم الفطرية، دون تدخل خارجي يمكن أن يعيق تطورهم الطبيعي. كما يشير إلى ضرورة تلبية احتياجات الطفل، خاصةً عندما يفتقر إلى بعض المهارات أو المعرفة. ولكنه يشدد على أن هذه المساعدة يجب أن تكون موجهة فقط في الأوقات التي يحتاج فيها الطفل إليها، دون أن تكون مفرطة أو غير ضرورية، لأن الهدف هو تمكين الطفل من التكيف مع البيئة وتعزيز قدراته بطرق طبيعية.إضافة إلى يحذر روسو من تقديم المساعدة غير الضرورية أو المبالغ فيها التي قد تفسد الطفل وتجعله يعتمد على رغباته أو أهوائه، وبدلاً من ذلك، يجب أن يكون العون دائمًا مفيدًا وواقعيًا، ويجب تجنب تلبية رغبات الطفل التي ليست ضرورية أو تتعارض مع مصلحته الطبيعية، علاوة على إشارته إلى أهمية الاهتمام بتطوير اللغة والإشارات لدى الأطفال في مرحلة مبكرة، من أجل أن يتمكنوا من التميز بين ما هو فطري وطبيعي وما هو مكتسب من المجتمع أو البيئة من حولهم. وهذه العملية ضرورية لتفادي التأثيرات الخارجية التي قد تُحرف أو تُعكر النمو الطبيعي للطفل، وتعزز فكرته حول التربية التي تتماشى مع الطبيعة الفطرية.

انطلاقا مما سبق نستنتج أن هذه المبادئ تشير إلى تربية متوازنة تأخذ بعين الاعتبار الطبيعة الفطرية للطفل، حيث يُسمح له بالنمو بحرية، ويتم تزويده بالمساعدة الضرورية فقط عند الحاجة، ويُشجع على التمييز بين الرغبات الطبيعية والتأثيرات الخارجية. كما أن هذه المبادئ تدعو إلى تربية تتجنب الإفراط في التدخل وتترك للطفل الفرصة لاكتشاف وتطوير قدراته الشخصية في بيئة طبيعية وواقعية.

وملخص ما جاء به هذا المطلب، فإن مبادئ التربية الطبيعية عند جان جاك روسو المتعلقة بتطور الطفل ونموه الطبيعي، تتجلى في دعوته إلى احترام الطبيعة الفطرية للطفل، والتربية على أساس التفاعل مع البيئة دون فرض قيود قسرية، كما يُشدد على ضرورة منح الطفل حرية في تطوره الشخصي ونموه دون تدخلات مفرطة من المجتمع، كما يشير إلى أن التدخلات القسرية من قبل النظام الاجتماعي والتربوي تُفسد الإنسان وتحد من حريته الطبيعية، ما ينعكس سلبًا على سلوكه ونموه العقلي والعاطفي. كما يؤكد على أن التربية يجب أن تكون متوازنة، مع توفير المساعدة الضرورية فقط عند الحاجة، وتجنب التأثيرات الخارجية التي قد تشوه طبيعة الطفل. وهذا التفاعل مع البيئة يحقيق نموا شخصيا متوازنا للطفل، ويساهم في تطوير قدراته العقلية والعاطفية بشكل طبيعي.

2.1 المبادئ المتعلقة بأسلوب التعليم والتفاعل بين المعلم والطفل

قال روسو: "والولد بعد أن يُطفأ الطبيعي فيه بشهوات محدثة، يوضع هذا الموجود المصنوع بين يدي معلم يتم إنماء البذور المصنوعة التي يجدها مكونة فيه سابقا، فيعلمه كل شيء خلا معرفة نفسه، خلا الانتفاع بنفسه، خلا علم السلوك ونيل السعادة. وأخيرا عندما يُلقى في العالم هذا الولد العبد والطاغية، والمملوء علما والمجرد من الإدراك، والضعيف جسما وروحا، دالا على عجزه وزهوه وجميع عيوبه، يوجب رثاء لبؤس الناس وفسادهم، ونحن على خطإ في هذا؛ فذاك رجل أهوائنا، ويكون رجل الطبيعة على خلاف ذاك."[6] يشير هنا روسو إلى دور المعلم في تشكيل شخصية الطفل، حيث يرى أن المعلم يتعامل مع الطفل كما لو كان آلة؛ إذ يسعى إلى "إنماء البذور المصنوعة" في الطفل. بهذا المعنى، يعبر عن انتقاد للطريقة التي يُفرض بها على الطفل تعليمٌ لا يتناسب مع طبيعته، وإنما يعتمد على الحقائق والمفاهيم التي يصنعها المعلم، مما يفصل الطفل عن فهم نفسه واكتشاف حياته الذاتية. المعلم، وفقًا لروسو، يعلّم الطفل "كل شيء" باستثناء ما هو أهم: "معرفة نفسه، الانتفاع بنفسه، علم السلوك، ونيل السعادة".

كما يشير إلى النتائج السلبية للنظام التعليمي القسري؛ بحيث يعتقد أنه عندما يُترك الطفل ليخرج إلى العالم بعد أن تم تزويده بكافة المعارف "التي تقتصر على المعرفة الأكاديمية" دون أن يتمكن من اكتشاف ذاته أو الحياة الطبيعية، يصبح هذا الطفل "عبدًا وطاغية" في الوقت نفسه، ويعبر روسو عن هذه الفكرة بأن الطفل المتعلم بهذه الطريقة يصبح "مملوءًا علمًا" لكنه "مجرد من الإدراك"، أي أنه يفتقر إلى الفهم العميق لذاته وواقعه، ويصبح ضعيفًا سواء من الناحية الجسدية أو الروحية. كما يوضح روسو أن الإنسان الذي نشأ وفقًا لهذه الأنماط التربوية القسرية لا يكون "رجل الطبيعة"، بل يصبح "رجل أهوائه". بمعنى آخر، الإنسان الذي نشأ تحت التأثيرات الاجتماعية والثقافية في ظل نظام تعليمي قسري يبتعد عن

طبيعته الفطرية. على عكس ذلك، فإن "رجل الطبيعة" وفقًا لروســـو هو الذي يعيش بحرية وفقًا لطبيعته، ويعرف كيف يتفاعل مع نفسه ومع العالم من حوله بشكل متوازن وطبيعي.

وعليه يمكن القول بأن روســو يعبر عن رؤيته التربوية التي تؤكد على أهمية التربية الطبيعية التي تتيح للطفل اكتشــاف نفسه والعالم من حوله بحرية، دون تدخلات قسرية أو تعليم يتجاهل طبيعة الطفل؛ إذ يجب أن يكون التعليم مسارًا يساعد الطفل على معرفة نفسه والسعي نحو سعادته، وليس مجرد إلقاء معارف عليه تبتعد عن تطور شخصيته الطبيعية.

أما قوله:" إنه يجب أن يكون مربي الولد شــابا، وأن يكون من الشــباب ما يكونه الرجل الحكيم أيضــا، وأود لو يكون المربي ولدا إذا أمكن هذا، فيصبح رفيق تلميذه وحل ثقته مقاسما لهوه."[7] فهنا يشير روسو إلى الخصائص المثالية التي يجب أن يتحلى بها المربي في تربية الطفل، ويعكس فيه أفكاره حول كيفية بناء علاقة صـــحيحة بين المربي والطفل؛ بحيث يرى ضرورة أن يكون المربي شابًا، لأن الشباب عادةً ما يكونون أقرب إلى مرحلة الطفل من حيث الحيوية والنشاط، بالإضافة إلى أنهم يمتلكون نوعًا من الطاقة والمرونة التي تجعلهم قادرين على التواصــل بشــكل أفضــل مع الأطفال، فالمربي الشــاب يستطيع أن يكون أكثر فهمًا ومرونة في التعامل مع الأطفال، وأن يكون لديه القدرة على التفاعل بشكل حيادي وطبيعي دون المسافة التي قد ينشئها المربي الأكبر سنًا، وهذه العلاقة التفاعلية والمرنة تساعد في بناء ثقة بين الطفل والمربي.

كما يؤكد روســو بأن المربي يجب أن يكون حكيمًا، فعلى الرغم من أن روســو يوصــي بأن يكون المربي شــابًا، إلا أنه يضيف شرطًا آخر وهو أن يكون المربي حكيمًا، والحكمة تعني القدرة على اتخاذ القرارات الصحيحة والتمتع بالفهم العميق لاحتياجات الطفل وتطويره، والحكمة هنا لا تقتصر على المعرفة الأكاديمية أو التعليمية، بل تتعلق بالفهم العاطفي والنفسي لكيفية تفاعل الأطفال مع العالم من حولهم. إضافة إلى ذلك فإن روسو يود أن يكون المربي "ولدًا" إذا كان ذلك ممكنًا، أي أن تكون العلاقة بين المربي والطفل علاقة صداقة وتعاون لا علاقة سلطوية. فالمربي يجب أن يكون رفيقًا للطفل، ليس فقط شــخصًــا يُعلمه أو يوجهه من الأعلى، بل يجب أن يكون متعاونًا ومقاسمًا للطفل في لحظات اللهو واللعب. وهذه الفكرة تعكس رؤية روسو حول التربية الطبيعية التي تسعى إلى خلق بيئة تعليمية تتمتع بالمرونة والحرية والاحترام المتبادل بين المعلم والطفل.

وعليه نستنتج أن روســو يولي أهمية كبيرة للعلاقة الإنســانية الطيبة والمبنية على التعاون والاحترام بين المربي والطفل؛ إذ يجب على المربي أن يكون في مســتوى الطفل من حيث الفهم والقدرة على التواصــل، وأن يشــارك الطفل في لحظات من الفرح واللهو، ما يساعد في بناء علاقة ثقة وصداقة تؤثر بشكل إيجابي على نموه وتعلمه.

أما قوله:" ولا يَعُدُّ التلميذ معلمه إلا رمزا الصبا وآفته، ولا يعد المعلم تلميذه إلا عبئا ثقيلا يتحرق شوقا إلى إلقائه عن عاتقه، ويطمح بصر كل منهما، متفقا، إلى الوقت الذي يتخلص فيه من الآخر، وبما أنه لا يوجد بينهما حب حقيقي فإنه يكون عند أحدهما قليل انتباه ويكون عند الآخر قليل انقياد. لكنهما إذا ما أبصــرا أنهما ملزمان بقضــاء أيامهما معا عينا بتحابهما، وصــار كل منهما عزيزا على الآخر، ولا يستحي التلميذ مطلقا من اتباعه في صباه من يكون صديقه إذا كبر،

ويُعنى المربي برعاية من لابد من اقتطاف ثمرته، ويُعدُّ كل فضل يحبو به تلميذه أساسا يضعه نفعا لأيام مشيبه."[8] يعكس هذا الاقتباس رؤية روسو حول العلاقة بين المعلم والتلميذ في العملية التعليمية، وفي هذا السياق، يبرز روسو الفروق الكبيرة بين العلاقة التقليدية التي تقوم على السلطة والتوجيه القسري، وبين العلاقة التي يجب أن تكون قائمة على التعاون المتبادل والمودة بين المعلم والتلميذ؛ إذ بين فكرة الانفصال بين المعلم والتلميذ في العلاقة التقليدية، حيث أشار إلى كيف أن التلميذ لا يرى في معلمه سوى "رمز للصبا وآفته"، بمعنى أنه يراه شخصًا يمثل مرحلة سابقة في حياته، ومؤهلاً فقط لفرض القواعد والتعليمات عليه. بالمقابل، لا يرى المعلم في تلميذه سوى عبء ثقيل، ويشعر بشوق للتخلص من هذا العبء في أسرع وقت ممكن. وهذه العلاقة تعكس فشلًا في التواصل الفعلي والإنساني بين الطرفين، حيث لا يوجد هناك تقدير متبادل أو حب حقيقي، وبالتالي يصبح كل منهما بعيدًا عن الآخر، مما يؤدي إلى قلة انتباه من التلميذ وقلة انقياد من المعلم.

وجاء روسو بمقترح يعد أسلوبا لحل مشكل العلاقة التقليدية القائمة على الانفصال والتنافر بين المعلم والتلميذ؛ حيث بين روسو التحول الذي يجب أن يكون في العلاقة بين المعلم والتلميذ، فيرى أنه متى أدرك كل من المعلم والتلميذ أنهما ملزمان بالتفاعل معًا طوال فترة التعليم، وأن العلاقة بينهما ليست مؤقتة أو مصطنعة، بل هي علاقة تستحق أن تُبنى على أساس من الحب والاحترام المتبادل، فإن هذا الوعي المشترك يمكن أن يحول العلاقة، ويصبح كل منهما عزيزًا على الآخر، ويكتسب المعلم والتلميذ رؤية جديدة لشراكتهم في العملية التعليمية، والتلميذ لا يشعر بالخجل من متابعة المعلم عندما يكبر، لأن العلاقة بينهما تكون قد تطورت لتصبح أكثر قربًا وأصالة. كما أن يجب على المربي أن يهتم بالتلميذ كجزء من تكوينه الشخصي؛ إذ يشير روسو إلى أن المربي يجب أن يعتني بتلميذه كما لو أنه يزرع بذورًا سيحصد ثمرتها في المستقبل، و"كل فضل" يمنحه المعلم للتلميذ، حتى وإن بدا صغيرًا، يصبح جزءًا من بناء شخصية التلميذ وأساسًا لما سيحققه في حياته. وفي هذا السياق، يُعتبر المعلم أكثر من مجرد شخص يُعطي المعرفة، بل هو شخص يستثمر في تشكيل وتوجيه التلميذ ليصبح شخصًا نافعًا ومؤثرًا في المجتمع. "وعليه فقد كان من الطبيعي أن يقترح أسلوبا بديلا للتربية يحفظ للإنسان مقوماته الطبيعية الأصلية ويحميها من الانحراف أو الانطماس، وهذا ما تجلى في دعوته الصريحة إلى تربية أخلاقية تتلاءم مع الطبيعة الإنسانية للطفل وتتفق تحديدا مع عاطفته البشرية."[9]

نستنتج مما سبق أن روسو يركز في هذا القول على أهمية بناء علاقة تعليمية قائمة على التفاهم المتبادل والمودة بين المعلم والتلميذ. فبدلاً من العلاقة القسرية الباردة التي لا تقوم على الاحترام، كما يدعو إلى علاقة حقيقية حيث يسهم المعلم في تنمية شخصية التلميذ في جوانبها المختلفة، بينما يُمنح التلميذ الفرصة ليكتسب المعرفة ليس فقط كأداة لتحقيق النجاح الأكاديمي، بل كأساس لبناء حياته الإنسانية والاجتماعية.

وكخلاصة لهذا المطلب يمكن القول بأن المبادئ المتعلقة بأسلوب التعليم والتفاعل بين المعلم والطفل عند روسو تتمثل في أن العلاقة بين المعلم والتلميذ يجب أن تكون قائمة على التفاهم والمودة، وليس على السلطة أو القسر. كما يعبر عن انتقاده للأساليب التعليمية التقليدية التي تقوم على فرض المعرفة الأكاديمية على الطفل دون الاهتمام بتطويره الشخصي أو

فهمه لذاته، فبالنسبة له، يجب أن يكون المعلم أكثر من مجرد ناقل للمعلومات؛ بل يجب أن يكون مربيًا يساعد الطفل على اكتشاف نفسه والسعي نحو سعادته. كما يرى أن المربي يجب أن يكون شابًا، حكيمًا، ورفيقًا للطفل، مما يتيح تفاعلًا صحيًا وطبيعيًا بين الطرفين. وعندما يتبنى المعلم والتلميذ هذه العلاقة القائمة على الحب والاحترام، يمكن أن يتحول التعليم إلى شراكة حقيقية تسهم في تطوير شخصية الطفل في كافة جوانبها.

2. أثر التربية الطبيعية عند جان جاك روسو على نظريات التعليم الحديثة

تأثرت نظريات التعليم الحديثة بشكل كبير بأفكار جان جاك روسو، خصوصًا في مجال التربية الطبيعية، حيث يعتبر روسو واحدًا من أبرز المفكرين الذين أرسوا الأسس التي ساعدت في تطور أنظمة التعليم الحديثة، ولمعرفة المزيد عن هذا الموضوع سيتم تناول هذا المبحث من خلال مطلبين، الأول: نماذج من الآراء التربوية الحديثة المتأثرة بفكر روسو (1.2)، الثاني: تطبيقات التربية المعاصرة المستوحاة من فكرة روسو(2.2)

1.2 نماذج من الآراء التربوية الحديثة المتأثرة بفكر روسو

تبنى العديد من المفكرين أفكارًا مشابهة لتلك التي طرحها جان جاك روسو، خاصة فيما يتعلق بأهمية احترام الطبيعة الفطرية للأطفال وتقديم تعليم موجه نحو التجربة والتفاعل مع البيئة.

كان من أبرز هؤلاء العلماء، جون ديوي(John Dewey) ، وهو أحد مؤسسي الفلسفة البراغماتية، وهو فيلسوف ومصلحٌ تربوي أمريكي ليبرالي، عاش في الفترة بين الأعوام 1859-1952، وإلى جانب مساهماته في الفلسفة البراغماتية، تُنسب إليه مساهمات في فلسفة التعليم (فلسفة التربية)، والإصلاح الاجتماعي، كما ساهم في وضع النظرية الوظيفية في علم النفس.[10] يعد ديوي من أبرز المفكرين الذين تأثروا بفكر روسو في التربية، فقد تبنى فكرة أن التعليم يجب أن يكون موجهًا نحو التجربة الشخصية للطفل، حيث يرى أن الأطفال يتعلمون بشكل أفضل عندما يشاركون في الأنشطة العملية التي تتعلق بمواقف الحياة الحقيقية، على غرار روسو، كان ديوي يعتقد أن الطفل يجب أن يتعلم من خلال التجربة والمشاركة الفعالة في البيئة المحيطة. قال ديوي: «تلك القوانين، التي لو نظرنا إليها في نفس الوقت من وجهة نظر تطور الطفل، لوجدناها إلى حد ما عرفية واستبدادية. فهي قواعد قد وضعت ليكون من شأنها العمل على استمرار سير الأوضاع المدرسية القائمة؛ إلا أن النقص الفطري للضرورة في العمل المدرسي يعكس نفسه في صورة إحساس؛ من جانب الطفل، معناه أن النظام الأخلاقي في المدرسة هو إلى حد ما نظام تعسفي[...]فالطفل ينبغي أن يكون لديه شعور ايجابي بما هو في سبيل القيام به، وأن تكون لديه القدرة على أن يحكم على أفعاله وعلى أن ينتقدها من وجهة نظر علاقتها بالعمل الذي يجب عليه أن يقوم به."[11]

عبر ديوي من خلال هذه العبارات، عن موقفه النقدي تجاه النظام المدرسي التقليدي ويؤكد على ضرورة توافق التعليم مع تطور الطفل الطبيعي، ويشير ديوي إلى أن القوانين التي تحكم النظام التعليمي غالبًا ما تكون "عرفية واستبدادية"

من منظور تطور الطفل، بمعنى أن هذه القواعد لا تأتي بناءً على احتياجات الطفل الفطرية أو قدراته العقلية والعاطفية، بل تم تصميمها لضمان استمرارية النظام المدرسي السائد، مما يجعلها غالبًا غير ملائمة لتجربة الطفل الشخصية. ويتفق ديوي مع روسو في أن التعليم يجب أن يكون موجهًا نحو التجربة الشخصية للطفل. وهذا يشمل التعلم من خلال الأنشطة العملية والمشاركة الفعالة في مواقف الحياة الحقيقية؛ حيث يرى ديوي أن الأطفال يتعلمون بشكل أفضل عندما تتاح لهم الفرصة للمشاركة في تجارب حية تتعلق بحياتهم اليومية، بدلاً من التعلم من خلال الحقائق المجردة أو القوانين المفروضة عليهم. ويشير إلى أن هذه القوانين قد تبدو في بعض الأحيان تعسفية، ولا تُعطي الطفل الفرصة لفهم مغزى ما يتعلمه أو تقييمه بناءً على اهتماماته الشخصية. وهو ما يدل على أن في النظام التعليمي التقليدي، يظل الطفل في حالة من الانفصال عن التجربة الفعلية لما يتعلمه، وهو ما يعكس نقصًا في ارتباطه المباشر بالعالم الخارجي. كما يشدد ديوي على أهمية أن يشعر الطفل بشعور إيجابي تجاه ما يتعلمه، وهو أمر يتوافق مع رؤية روسو التي تؤكد أن الطفل يجب أن يتعلم بحرية وحب لما يقوم به. كما ينبغي أن يكون لدى الطفل القدرة على أن يحكم على أفعاله ويقدرها من خلال علاقتها بالهدف الذي يسعى لتحقيقه، بدلاً من مجرد تنفيذ الأوامر أو الامتثال للنظام التعليمي.

انطلاقا مما سبق نستنتج أن ديوي يتفق مع فكر روسو في التأكيد على ضرورة أن يكون التعليم متوافقًا مع الطبيعة الفطرية للطفل، وأن يكون مبنيًا على التجربة الشخصية والمشاركة الفعالة. وينتقد النظام المدرسي التقليدي لأنه يفرض قوانين وقواعد قد لا تكون مناسبة لتطور الطفل أو تجاربه الحياتية. لذلك، يجب على التعليم أن يتيح للطفل الفرصة للتعلم من خلال تجربته الخاصة، مما يساعده على فهم عالمه بشكل أفضل وتطوير قدراته النقدية.

ومن أقوال ديوي:"...ولعلي قد أسهمت نوعا ما لكي أوضح النقاط الشائعة في التربية القديمة بسلبيتها في الاتجاه، وميكانيكيتها في حشد الأطفال، وتجانسها في المناهج والطريقة. ومن الممكن أن يخلص كل ذلك بالقول بأن مركز الجاذبية واقع خارج نطاق الطفل، انه في المعلم، في الكتاب المدرسي، بل قل في أي مكان تشاء عدا أن يكون في غرائز الطفل وفعاليته بصورة مباشرة[...] ومن الطبيعي أن يكون للبيت المثالي محل صغير تحفظ فيه بعض الأدوات حيث يستطيع الطفل أن يعبر عن غرائزه البناءة. ويكون فيه مختبر صغير قد يستطيع الطفل فيه أن يوجه ما لديه من تبعات. وستتسع حياة الطفل خارج البيت فتتجه إلى الحديقة وإلى الحقول المجاورة والغابات[...]فإذا نظمنا الآن وعممنا كل هذه الأشياء فقد حصلنا على المدرسة المثالية[...]أما التعلم فيأتي عن طريق علاقته بالحياة وخلالها. وعندما نجعل حياة الطفل متمركزة ومنظمة على هذه الصورة فلا نجد الطفل مخلوقا للإصغاء بالدرجة الأولى بل نجده على نقيض من ذلك..."[12]

انطلاقا من هذا النص نستنتج أن النظرية التي يعبر عنها جون ديوي من خلاله، تتوافق مع فكرة روسو حول التربية الطبيعية، حيث يركز ديوي على أهمية مركزية الطفل في العملية التعليمية، إذ يشير إلى أن مركز الجاذبية في التعليم يجب أن يكون في غرائز الطفل وفعاليته، وليس في المعلم أو الكتاب المدرسي، وأن التعليم يجب أن يتماشى مع طبيعته واحتياجاته. إضافة إلى توفير بيئة تعليمية تحفز الطفل على التعبير عن غرائزه البناءة من خلال الأدوات والأنشطة العملية في مكان مثل

المختبر الصغير .وهذا يشير إلى أهمية التعلم عن طريق التجربة والاندماج مع البيئة المحيطة، وضرورة كون بيئة التعليم أكثر حرية ومرونة، بحيث يتمكن الطفل من التفاعل مع الطبيعة والمحيط الخارجي، مثل الحديقة والحقول والغابات.

وعليه فإن نظرية جون ديوي في التربية تتبنى العديد من مبادئ التربية الطبيعية التي طرحها روسو، مثل مركزية الطفل في العملية التعليمية، وتعلمه من خلال التجربة العملية والارتباط الوثيق بـــالبيئة الطبيعية، مما يعزز تطور الطفل بشكل طبيعي بعيدًا عن القيود القسرية والمنهجية الصارمة.

ومن العلماء الذين تأثروا بفكر روسو في التربية، مَارِيَا تِيكُلَّا ارْتِيمِيسَا مُونْتِيسُورِيMaria Montessori (31 أغسطس 1870- 6مايو 1952) هِيَ طَبِيبَة ومُعَلِّمة وفيلسوفة وعالِمة نفس، وطبيبَة نفسيَّة، ومُحاضرة، ورياضياتية .عُرِفت بِفلسفتِها بالتَّعليم التِي حملت اسمَها لاحِقًا.[13] طورت منتيسوري طريقة تعليمية تعتمد على احترام الطفل ككائن فطري يملك رغبات واهتمامات تتشكل بشكل طبيعي، كما أكدت على أن التعليم يجب أن يكون موجهًا لتلبية احتياجات الطفل الطبيعية من خلال بيئة تعليمية مجهزة تسمح له بالتفاعل واللعب والاستكشاف بحرية، متأثرة بأفكار روسو حول الطبيعة الفطرية للطفل وأهمية السماح له بالنمو بشكل طبيعي، كما تبنت فكرة تعليم الأطفال من خلال التجربة الذاتية والنشاطات العملية، دون فرض تعلم مفرط أو قسري.

وضعت مونتيسوري "برنامجها الذي اشتهر باسم نظام أو منهج مونتيسور Montessori Method or System، والقائم على أقل تدخل من المدرس، وأكثر حرية للتلميذ، وأكبر كمية من النشاط التلقائي والإرادي في شكل ألعاب مقصودة لتدريب مهارة معينة، أو تعلم حقيقي من الحقائق، أو واقعة اجتماعية[...] ونظرية مونتيسوري في التعليم عند الأطفال تقوم كما هو واضح على فكرة إتاحة كل الفرص للطفل للتعبير عن نفسه، وذلك شيء سبقها إلى القول به روسو وفروبل وبيستالوتسي وآخرون."[14] ورغم أن إهتمامات مونتيسوري كانت عملية أكثر منها نظرية، إلا أنها طورت موقفا نظريا محددا، يرجع في أصوله كثيرا إلى روسو، حيث أوضحت أننا نخطئ عندما نفترض أن الأطفال يمكن أن يكونوا مـا نريد، لأن الأطفال يتعلمون على مسئوليتهم وبمعرفتهم ومن واقع مستوى نضجهم واستعدادهم(Mntessori,1936a,p.22, 1949,pp17,223) كما أنها أوضحت مثلها مثل روسو أن الأطفال غالبا يفكرون ويتعلمون بطريقة مختلفة تماما عن الكبار."[15]

نستنتج مما سبق أن العديد من المفكرين مثل جون دويوي وماريا مونتيسوري، قد تأثروا بشكل كبير بأفكار روسو حول التربية، واعتنقوا مفاهيمه المتعلقة بأهمية احترام الطبيعة الفطرية للطفل وتقديم التعليم الموجه نحو التجربة والتفاعل مع البيئة.

2.2 تطبيقات التربية المعاصرة المستوحاة من فكرة روسو

تُعد أفكار جان جاك روسو في التربية أحد الأسس التي أثرت بشكل كبير في تطور التربية الحديثة، لا سيما في مجال تعليم الأطفال، ومن أبرز هذه التطبيقات التي لا تزال تُمارس في التربية المعاصرة:

التعليم المتمركز حول الطفل:(Child-Centered Education) ، وهو أحد التطبيقات الأساسية لأفكار روسو في التربية المعاصرة، حيث يضع هذا النوع من التعليم الطفل في المركز، ويعترف بحقوقه واهتماماته في عملية التعلم. والمعلم هنا يُعتبر موجهًا أو مرشدًا بدلاً من كونه مصدرًا وحيدًا للمعرفة، وهذا الأسلوب يتيح للأطفال اتخاذ قراراتهم الخاصة فيما يتعلق بتعلمهم ."إن الهدف وراء اتباع هذا النوع من التدريس هو إعداد طلاب ليصبحوا متعلمين يتسمون بالاستقلالية وتوجيه وتنظيم الذات."[16]

التعليم التجريبي:(Experiential Learning) ،" إنه المصطلح الذي يعني وبشكل أساس التعلم والنمو الذاتي الذي يتم إنجازه وتحقيقه من خلال التجربة والمشاركة الشخصية للفرد."[17]يعتمد هذا النوع من التعليم على فكرة أن الأطفال يتعلمون من خلال التجربة المباشرة والتفاعل مع البيئة من حولهم. وهذا يتماشى مع فكر روسو الذي يرى أن التعلم يجب أن يكون جزءًا من الحياة الطبيعية والعملية، بدلاً من التعليم القائم على الحفظ والتلقين، وينطبق المثال التطبيقي السابق على هذا النوع من التعليم أيضا.

التعلم النشط :(Active Learning) ، يعرف هذا النوع من التعلم على أنه:" طريقة تدريس تشرك المتعلمين في عمل أشياء تجبرهم على التفكير."[18]يعتمد هذا النموذج على إشراك الطلاب بشكل فعّال في عملية التعلم، مما يسمح لهم بالتفاعل مع المعلومات بطرق عملية تساهم في تعزيز الفهم العميق. وهذا يتماشى مع فكر روسو حول ضرورة أن يتعلم الطفل من خلال الأنشطة والتجارب الحية، مما يساعده على اكتشاف نفسه ومحيطه.

التعلم الذاتي :(Self-Directed Learning) يُشجع هذا التطبيق الطلاب على أن يكونوا المسؤولين عن تعلمهم، بما يتماشى مع رؤية روسو بأن الطفل يجب أن يتعلم وفقًا لاهتماماته واحتياجاته الطبيعية. وفي هذا السياق، يُشجع الطلاب على البحث والاستكشاف بأنفسهم بدلاً من التوجيه الصارم من قبل المعلم.

التعليم الشامل :(Holistic Education) يُركز على تنمية الطفل بشكل متكامل في جوانب حياته المختلفة (العقلية، العاطفية، الاجتماعية، والجسدية). وهذا يتماشى مع رؤية روسو التي تدعو إلى تنمية الطفل من خلال تفاعل كامل مع بيئته الطبيعية والاجتماعية، مع توفير الفرص له للتعبير عن ذاته واكتشاف قدراته.

التعليم القائم على اللعب :(Play-Based Learning) يتماشى هذا التطبيق مع رؤية روسو حول أهمية اللعب في تعلم الأطفال، حيث يُعتبر اللعب أداة أساسية للتعلم في مرحلة الطفولة المبكرة. يتم تشجيع الأطفال على استكشاف العالم من خلال الأنشطة الموجهة نحو اللعب، مما يساعد في تطوير مهاراتهم الحركية والعقلية والاجتماعية.

وكمثال تطبيقي يجمع بين هذه النماذج التربوية المعاصرة المستوحاة من الفكر التربوي عند روسو: مشروع "استكشاف الطبيعة" في مرحلة التعليم الابتدائي؛ إذ يمكن للمعلم أن يطبق فكرة التعليم المتمركز حول الطفل في درس متعلق بالطبيعة أو البيئة. فبدلاً من تقديم المعلومات الجاهزة حول النباتات والحيوانات للأطفال، يتم تشجيعهم على استكشاف البيئة الطبيعية بأنفسهم وتطوير أفكارهم الخاصة حول هذا الموضوع. كما هو موضح في الجدول أسفله:

مشروع "استكشاف الطبيعة" في مرحلة التعليم الابتدائي		
المرحلة الأولى	التوجيه المبدئي	يبدأ المعلم بتوجيه الطلاب نحو السؤال: "ماذا تعرفون عن النباتات والحيوانات في منطقتنا؟" بدلاً من تقديم معلومات جافة أو محاضرة عن الموضوع. وهذه المرحلة تشجع الأطفال على التفاعل مع أفكارهم وتجاربهم الشخصية.
المرحلة الثانية	الاستكشاف الحقيقي	يتم أخذ الطلاب في رحلة ميدانية إلى حديقة قريبة أو منطقة طبيعية. وهنا، يُشجع الأطفال على مراقبة النباتات والحيوانات من حولهم، كما يمكن للأطفال أن يقوموا بجمع عينات من الأوراق أو الصخور، أو حتى إلتقاط صور لحيوانات قد يلاحظونها.
المرحلة الثالثة	الاستكشاف الذاتي	يتم العمل على شكل مجموعات والاعتماد على الاستكشاف الذاتي؛ فبعد العودة إلى الفصل، يُطلب من الأطفال العمل في مجموعات صغيرة لمناقشة ما شاهدوه وكتبوه. وفي هذه المرحلة، لا يُفرض على الأطفال أي إجابات أو معلومات محددة، بل يُشجع كل طفل على التحدث عن تجربته الشخصية، أو كتابة ملاحظاته، أو رسم ما لاحظه.
المرحلة الرابعة	المراجعة والتقييم	يُطلب من الأطفال مناقشة ما تعلموه بعد التجربة الميدانية. كما يمكن للمعلم أن يقدم بعض الأسئلة الإرشادية لمساعدة الأطفال على التفكير في تعلمهم: كيف تؤثر البيئة التي رأيناها على الحيوانات والنباتات؟ أو ما هي العلاقات التي اكتشفتموها بين النباتات والحيوانات؟. وفي هذه المرحلة، يُمنح الأطفال حرية في التعبير عن أفكارهم، ولا يتم تقديم أجوبة مسبقة من المعلم.

المرحلة الخامسة	عرض النتائج	يُطلب فيها من الأطفال مشـاركة تجاربهم مع باقي الفصـل وعبر عرض نتائجهم، سـواء كانت رسـومات، صـور، أو حتى تقارير بسيطة حول ما تعلموه. كما يمكن للأطفال اختيار الوسـيلة التي يريدون اسـتخدامها للتعبير عن تعلمهم، مما يعزز الإبداع والحرية في التفكير والتعبير.

انطلاقا من الجدول أعلاه، يمكن القول بأن هذا المثال التطبيقي يختزل العديد من النظريات التعليمية الحديثة التي تركز على احترام طبيعة الطفل وحقوقه في التعلم بحرية وبدون تدخلات قسـرية؛ إذ تتجسـد هذه الأفكار في مجموعة متنوعة من النظريات والتطبيقات التعليمية المعاصرة التي تسعى إلى تزويد الأطفال بالفرص اللازمة لاكتشاف أنفسهم وتطوير قدراتهم بشكل متوازن. حيث يُعطى الأطفال الحرية للتعلم من خلال التجربة الشخصية، ويُشجعون على اتخاذ قراراتهم بشأن التعلم بدلاً من فرض المعرفة عليهم.

نستنتج مما سبق أن أفكار جان جاك روسو في التربية، تعد أساسًا مهمًا في تطور التعليم المعاصر، حيث ساهمت في ظهور أسـاليب تعليمية تركز على الطفل، مثل التعليم المتمركز حول الطفل، التعليم التجريبي، والتعلم النشـط. وهذه الأسـاليب تتيح للأطفال التعلم من خلال التجربة، وتوجيه أنفسـهم وفقًا لاحتياجاتهم واهتماماتهم. كما تعزز تطوير الطفل بشكل شامل، من خلال التفاعل مع البيئة واللعب، مما يساهم في نموه العقلي والعاطفي والاجتماعي.

الخاتمة

في الختام وبناءً على ما تم عرضه فقد خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، من بين أهم النتائج تأكيد رسو على ضرورة احترام الطبيعة الفطرية للطفل وتوجيهه نحو تطوره الشخصي والنمو الطبيعي، بعيدًا عن التدخلات القسرية من المجتمع أو النظام التعليمي. كما يرى أن الطفل يتعلم بشكل أفضل من خلال التفاعل مع محيطه وتجارب الحياة اليومية، مما يعزز تطوره العقلي والعاطفي. أضافة إلى أن روسو يشدد على أن التربية يجب أن تكون متوازنة، مع توفير الدعم والمساعدة الضرورية فقط عند الحاجة، مما يسمح للطفل بالاستقلالية والنمو الذاتي دون قيود قسرية. ومن ضمن أهم النتائج، النقد للأساليب التعليمية التقليدية؛ إذ يعبر روسو عن انتقاده للأساليب التعليمية التي تركز على فرض المعرفة الأكاديمية على الطفل دون مراعاة تطوره الشخصي وفهمه لذاته. فالتربية يجب أن تركز على اكتشاف الطفل لذاته وتنمية قدراته الشخصية. إضافة إلى أن العلاقة بين المعلم والتلميذ يجب أن تكون مبنية على التفاهم والمودة وليس على السلطة أو القسر. ويجب أن يكون المعلم مربيًا ورفيقًا للطفل، مما يتيح تفاعلًا صحيًا وطبيعيًا بينهما. ومن أهم النتائج أيضا، التأثير الكبير لأفكار روسو حول التربية، وبشكل عميق في العديد من المفكرين المعاصرين مثل جون دويوي وماريا مونتيسوري، الذين تبنوا مبادئه المتعلقة باحترام الطبيعة الفطرية للطفل والتعليم الذي يعتمد على التجربة والتفاعل مع البيئة.

أما فيما يتعلق بتوصيات هذه الدراسة فتتمثل في ضرورة الاستمرار في تطوير التعليم المعاصر وتعزيز الأساليب المتمركزة حول الطفل؛ إذ ينبغي أن تستمر المدارس والمربين في تبني الأساليب التي تركز على الطفل وتتيح له فرصة التعلم بشكل مستقل من خلال التجربة والتفاعل مع محيطه. كما توصي الدراسة بضرورة مواصلة تطوير فلسفة التربية الشاملة؛ إذ ينبغي استثمار مزيد من الجهود في تطوير أساليب تعليمية تركز على جميع جوانب تطور الطفل، سواء العقلية أو العاطفية أو الاجتماعية، مع تأكيد أهمية اللعب والتفاعل مع البيئة المحيطة. كما ينبغي على المعلمين تفعيل الأنشطة التي تتيح للأطفال التفاعل مع البيئة المحيطة بهم، مما يساعد على اكتساب الخبرات الحية وتنمية مهارات التفكير النقدي والابتكار. بالإضافة إلى ضرورة إعادة النظر في أساليب التعليم التقليدية، من خلال تعديل المناهج الدراسية والأساليب التعليمية التقليدية لتكون أكثر مرونة، وتسمح للطفل بتعلم المهارات الحياتية والاجتماعية بشكل غير قسري. مع التركيز على العلاقات التربوية الصحية، بتعزيز العلاقة بين المعلم والتلميذ على أساس الحب والاحترام المتبادل، مما يساهم في تحفيز التلاميذ على التعلم والنمو الذاتي بشكل طبيعي. كما ينبغي أن تُراعى الفروق الفردية والاحتياجات الشخصية للطفل، وتوجيه التعليم نحو تطوير قدراته الطبيعية دون فرض ضغوط غير ضرورية عليه.

الهوامش:

[1] Devasis Chakma, Jean Jacques Rousseau: Educational Philosophy of Jean Jacques Rousseau, https://2u.pw/bNPw6 اطلع عليه في تاريخ 24/03/2025، على الساعة 19:46

[2] جان جاك روسو، إميل أو التربية، ترجمة: عادل زعيتر،(مؤسسة هنداوي،2019م) ص19

[3] إميل أو التربية، جان جاك روسو، ص26

[4] نفس المرجع، ص27

[5] إميل، روسو، ص58

[6] إميل، جان جاك روسو، ص33

[7] إميل، روسو،ص37

[8] إميل، روسو، ص39

[9] رولان رومان، آراء روسو الحية، ترجمة: محمد يوسف زايد، (دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الأولى، 1961) ص149

[10] Kendra Cherry, Biography of John Dewey, (Verywellmind, Updated on July25,2023) اطلع عليه بتاريخ 2025/03/25.على الساعة12:19. https://2u.pw/2K65N

[11] جون ديوي، المبادئ الأخلاقية في التربية، ترجمة: عبد الفتاح السيدهلال(الدار المصرية للتأليف والترجمة)ص32/31

[12] جون ديوي، المدرسة والمجتمع، ترجمة: أحمد حسن الرحيم،(دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، الطبعة: الثانية، 1978م)ص55/54

[13] ماريا منتيسوري، ويكيبيديا،https://2u.pw/Xu6Ou ، اطلع عليه بتاريخ: 2025/03/27، على الساعة 17:48

[14] د. نبيل موسى، موسوعة مشاهير العالم أعلام علم النفس وأعلام التربية والطب النفسي والتحليل النفسي،(دار الصداقة العربية،بيروت لبنان،الطبعة: الأولى، 2002م) ج2/ص409/408

[15] وليام كرين، نظريات النمو مفاهيم وتطبيقات، ترجمة: محمد الأنصاري، (الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، سلسلة الدراسات العلمية الموسمية المتخصصة، أكتوبر 1996م) ص91/90

[16] ماريلين وايمر،التدريس المتمركز حول المتعلم، ترجمة: رشا صلاح الدخاخني،(مؤسسةهنداوي للنشر،2019م) ص30

[17] جودت أحمد سعادة، التعلم الخبراتي أو التجريبي،(دار الثقافة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة: الآولى، 2014م/1435هـ) ص27

[18] رضا السيد حجازي، التعلم النشط،(محاضرة بالمركزالقوميس للامتحانات والتقويم التربوي،2005م) ص3